لم يَعُدِ النعمان بن عبيد الله إلى دار أهله في الجزيرة منذ خرج ليطلب ثأر أخيه عُتبة في بلاد الروم؛ فقد اتخذ في اللاذقية[٢] أسرة ودارًا يأوي إليها كلما عاد من صائفةٍ أو شاتية؛ وما كان ليأوِي إليها إلا أيامًا أو أسابيع يعود بعدها إلى ما بدأ، صائفًا أو شاتيًا.

وكان له نِكاية في العدو وصبرٌ على القتال واستماتة في المعركة؛ لا يقتحمها إلا وقد كَسَرَ جَفْنَ سيفه[٣] فلا يُغْمده إلا في اللبات[٤] والصدور والجنوب، وكان شعاره في الحرب: لبَّيك عتبة! لبيك أبا أيوب!

وكم تعرَّض للشهادة فأخطأته، وعاد مثقلًا بالغنائم وفي كفه سيف بلا جفن يقطر دمًا، وكم احتزَّ من رءوس، وبقَرَ من بطون، وشقَّ من مرائِر، ولكنه لم يَنَل مرة واحدة رأس بطريق من بطارقة الروم ثأرًا لأخيه …

وتشيعُ بطولة النعمان بين القوم، ويتحدث المُشاة والركبان بأنباء معاركه المُظفَّرة، حتى تبلغ تلك الأنباء أمه وعشيرته في أرض الجزيرة، فتدمع عينا العجوز الثكلى، وترفع يديها إلى الله ضارعة أنْ يكلأه ويرعاه؛ ليكون خَلَفًا من أبيه وأخيه … وتهمس الشفاه باسمه في ثغور الروم خائفةً وَجِلَة، فتتعوَّذ منه بالمسيح والعذراء، إنه لينال بالرعب من أعدائه أكثر مما ينال بسيفه!

وكان النعمان أثيرًا عند مسلمة[٥] منذ شهد ألوان بطولته، فأدناه منزلة وقرَّبه مجلسًا، وصار له عنده نَفَل مضاعف[٦] من أسلاب كل معركة.

وعاد النعمان ذات خريف من صائفته؛ ليستقبل ضيفًا جديدًا على الدنيا؛ فقد وُلِدَ له مولود ذكر، ها هو ذا يستهِلُّ صارخًا يؤذِن أباه بمقدمِه، ورنَّ صراخه الأعجم في أذن أبيه كأنما يسمع منه صائحًا يهتف في المعركة: لبيك أبا أيوب! فمال عليه يُقبِّله في المهد وهو يجيب: لبيك يا عُتبة! وصار اسم ذلك الصبي من يومئذٍ: عُتيبة بن النعمان.

---

[٢] اللاذقية: ثغر على شاطيء سوريا، وهي اليوم ميناء الجمهورية السورية.

[٣] جفن السيف: غمده.

[٤] اللبات: جمع لبة، وهي العنق.

[٥] مقرَّبًا إليه، يؤثره على غيره من أصحابه.

[٦] نصيب مضاعف من الغنائم.